تمهيد:

الموضوع الذي سندرسه في الصفحات التالية ليس بجديد بالنسبة إلى اللغة الأردية. ولكن المؤلف يشعر بأنه لا يزال ناقصاً، رغم الجهود الطيبة التي بذلها بعض الكُتَّاب.

والعصر الحديث يسمى: «عصر الإلحاد»، لإنكاره الدين. وهذا الإلحاد ليس محض ادعاء. بل يرى أصحاب نظريته أنها طريقة بحث ودراسة، اهتدى إليها الإنسان، بعد التطور الحديث في ميادين العلم المختلفة، وهذه «الدراسة التطورية» لا تهدف إلى إثبات نظرية ما أو إنكارها، وإنما هي منهج خالص في البحث، أثبت لأصحابه أن الدين باطل؛ ويمكن أن نفهم هذه الطريقة الجديدة في ما قاله ت. ر. مايلز:

«إن الدراسة الجديدة هي تكنيك ومنهج ونمط معين لمواجهة الأسئلة، وهي لا تستهدف وضع إجابات قطعية. وهو - من هذا الوجه - تغير هام طرأ على الفلسفة في النصف الأخير من هذا القرن، ولسوف يبقى هذا التغير مستمراً، دون أمل في توقفه على المدى[1] البعيد».

ولا بد لباحثينا، إذا ما أرادوا البحث في العلوم الحديثة، دفاعاً عن الدين، ألا يغيب عن أذهانهم هذا التفسير، سواء اعتبرناه تفسيراً علمياً محضاً، توصل إليه المفكرون المحدثون، أو اعتبرناه مجرد ملجأ جميل، ركنوا إليه، حين أخفقوا في البحث عن التفسير المادي للكون، بعد إنكار الدين.

---

(1) Religion and the scientific outlook 1954 p.13.

وعلى سبيل المثال: إن الأعمال التي قام بها علماؤنا، لإثبات النبوة، تفترض مقدماً أن العصر الحديث يدعي: أن محمداً ﷺ «كان نبياً كاذباً»، فيبدؤون في جمع كميات كبيرة من المواد التي تثبت أن محمداً ﷺ كان «نبياً صادقاً». ومغزى القول: «كان محمد نبياً كاذباً»، هو أن هناك أنبياء آخرين صادقين؛ على حين يشك الإنسان الجديد في المبدأ نفسه، فهو لا يؤمن بالنبوة أصلاً. فأما «النبي الكاذب» False Prophet، فهو اعتراضٌ قديم جاء به اليهود والنصارى، الذين يؤمنون بأنبيائهم، وينكرون نبي الإسلام. وأما العقل الحديث، فلا يبحث عما إذا كان محمد نبياً «صادقاً أو كاذباً»، وإنما يبحث عن منبع كلامه النبوي، وينتهي، اعتماداً على المناهج المعروفة، إلى أن مصدر هذا الكلام الغريب هو: «اللاشعور»... وهو يرى أن التعبير عن كلام اللاشعور بالوحي والإلهام يصلح أن يكون استعارة جميلة، ولكنه يستحيل اعتباره واقعاً حقيقياً.

ولذا، فإن مهمتنا لا تنتهي عند إثبات صدق نبوة رسول الإسلام، بل علينا أن نضطلع بالبحث عن الوحي والإلهامِ، ونثبت أن الوحي ينزل على أناس معينين، من بينهم نبي الإسلام.

كان هذا موقف من يتصدى لنقد الفكر الحديث، دون فهم موقفه من القضية. وهناك نوع آخر من علمائنا يدركون موقف الفكر الحديث من قضية الدين. ولكنهم، لشدة تأثرهم بالفكر الحديث، يرون أن كل ما توصل إليه أئمة الغرب يعدّ من (المسلمات العلمية)، ومن ثم تقتصر بطولتهم على إثبات أن هذه النظريات، التي سلم بها علماء الغرب، هي نفس ما ورد في القرآن الكريم، وكتب الأحاديث الأخرى. وهذه الطريقة في التطبيق والتوفيق، بين الإسلام وغيره، هي نفس الطريقة التي تتبعها شعوب الحضارات المقهورة تجاه الحضارات القاهرة. وأية نظرية، تقُدَمَّ على هذا النحو، يمكنها أن تكون تابعة، ولكنها لا يمكن أن تكون رائدة! ولو خيل إلى أحدنا أنه يستطيع أن يغير مجال الفكر في العالم بمثل هذه المحاولات التوفيقية، ليشرق على البشرية نور الحق، فهو هائم، ولا شك، في عالم خيالي، لا يمت إلى

الحقائق بسبب . . . فإن تغيير الأفكار والمعتقدات لا يأتي من طريق التلفيق، بل عن طريق الثورة الفكرية.

وهذه الحالة تورطنا، بصورة أكبر، عندما تتعلق المسألة بجانب أساسي وهام من أفكار الدين، فلا بأس بأن يقوم أحدنا بتفسير جديد لظاهرة «الشهاب الثاقب» التي وردت في القرآن، حين يجد كشفاً جديداً في علم الفلك الحديث، ولكننا لو قبلنا نظرية كلية شاملة، وذات علاقة بالمشكلات الأخرى التي تثار حول الدين، فسوف يكون لذلك تأثير عميق وكليّ في هيكل الفلسفة الدينية نفسه.

وأوضح مثال في هذا، هو تلك الجماعة من علمائنا الذين قبلوا «نظرية النشوء والارتقاء»، لأن علماء الغرب أعلنوا اقتناعهم الكامل بصدقها، بعد دراساتهم ومشاهداتهم. . واضطروا، بناء على هذا، إلى تفسير جديد للإسلام في ضوء النظرية الجديدة، وحين احتاجوا إلى لباس جديد، قاموا بتفصيل ثوب الإسلام مرة أخرى، ولكنه ثوب مشوه المعالم، لا أثر فيه من روح الإسلام، التي ضاعت مع الأجزاء المقطعة في عملية التلفيق الجديدة.

إن نظرية النشوء والارتقاء تستهدف إقرار فكرة التطور بصفة مستمرة بحيث تبلغ الحياة أوجها عند النهاية. وبناء على هذا: لا بد من أن تحدث الأحوال السيئة في الماضي، لا في المستقبل. ويروق لهذه النظرية حياة الخلود في الجنة، ولكنها لا تقبل الخلود في نار الجحيم. ولذا، ادعى العلماء المسلمون، الذين قبلوا هذه النظرية، أن الجحيم ليست مكاناً للعذاب، وإنما هي مركز للتربية والتزكية. فالحياة تواصل مسيرتها في مواجهة الصعاب والمشكلات.

والذين لم يستطيعوا مواصلة مسيرتهم بسبب عوائق الذنوب، سوف يمرون بأحوال الجحيم الصعبة، حتى يواصلوا رحلتهم التطورية خلال الحياة القادمة.

ومن هنا ترى هذه الطائفة أن قوانين الملكية ـ مثلاً ـ في الإسلام، ليست إلاّ «أحكاماً مؤقتة»، فإن هذه القوانين لا تتفق ونظرية التطور الاجتماعي.

ويمكن فهم نوعية الأعمال التي قام بها بعض علمائنا من المثالين المذكورين، فهي أعمال ناقصة، رغم الجهود التي بذلت في صوغها. ولا يدعي المؤلف أن

محاولته تخلو من النقائص. ولكنه يقول: إن المحرك الحقيقي لمحاولته هو شعوره بأن عملاً من هذا القبيل كان لابد أن يكون.

إن الطريقة التي يتبعها الكتّاب للدفاع عن الدين ذات وجهين: فكرية وتجريبية؛ وبعبارة أخرى: فلسفية وعلمية، إن صح التعبير. وقد راعى المؤلف الطريقة الثانية، وهي التجريبية أو العلمية. والسبب في ذلك أن مكتبتنا تزخر بمجلدات ضخمة من الكتب التي وضعت على المنهج الأول، على حين يوجد نقص شديدٌ في الكتب من المنهج الثاني.

وإنني لأشعر بأن المضمار الفسيح الذي هيأته الدراسات العلمية الحديثة لإثبات الدين، هو تصديق لما جاء في القرآن: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾. وهذا الكتاب محاولة لاستغلال الإمكانات الجديدة لصالح الدين بطريقة منظمة.

وحيد الدين

The Islamic centere

c-29 nizamuddin west

new delhi 110 013.(india)

❖ ❖ ❖